الإيمان ينبوع السعادة

للدكتور أحمد أمين

يروى عن عمر بن الخطاب أنه دعا الله أن يرزقه إيمانا كإيمان العجائز ، ولم يقل كإيمان العلماء . . لأن إيمان العجائز إيمان عميق ، هادىء مطمئن ، لا يرق إليه الظن ، ولا يحوم حوله الشك . دينهم شعور عميق بالله بلغ النهاية فى الكمال، والغاية فى الطيبة ، وعن هذا تصدر أعمالهم ، وبلقائه تتعلق آمالهم . أما العلماء فقد أعتادوا الشك . وأعتمدو على الحجج العقلية ، فكان إيماناً مقلقلا ، يحول بينهم وبين تمام إعتقادهم ، صعوبة إدراكهم لحقيقته بعقولهم .

ثم إن خير الدين ما أتى عن طريق القلب ، والعجائز إيمانهم عن طريق قلوبهم والعلماء إيمانهم عن طريق عقولهم . والعقل عادة مصدر للشك والتردد ، والقلق والحيرة . والقلب لا يعرف شكا ولا تردداً .

و إيمان العجائز إيمان بسيط سهل ، فهم يدركون أن الإيمان بالله معناه أن الله خالق كل شىء ، ومدبر كل شئ ، يعطف على من يحبه بالخير ، وينتقم ممن لا يؤمن به ، إن عاجلا و إن آجلا . وهذه العقيدة على بساطتها كافية فى سير الشخص سيراً حسنا حميداً ، يفعل الخير و يجتنب الشر .

إن الإيمان بالدين مبنى على أساسين : رغبة ورهبة . فالإنسان يعمل الخير رغبة فى ثوابه ، وأملا فى جنته ، وهو يخاف عقوبته ، ويخاف ناره ، و بين الرغبة والرهبة تصلح الأعمال وتتم السعادة .

ما الحياة بلا إيمان بالله ؟ . . إن الإنسان خلق فى هذه الحياة وسط تيار جارف وجو عاصف . تنتابه الأحداث العظام ، وتحل به الكوارث . فما لم يعتقد فى آله يتخذه ملجأ له ، وركنا يعتمد عليه ، ومعزيا له فى المصائب ، ومساعداً له فى المتاعب ،

ومأمنا له ضد الأخطار ، ومواسيا له عند الحزن كان كبناء لا يستند إلى أساس ، وبيت ليس له دعامة . ومن أجل ذلك نرى أشقى الناس فى الحياة أكثرهم إلحاداً: أنهم قد يملكون المال الكثير ، ويحصلون على الرزق الوفير ، ولكن لا يلبثون إذا حلت بهم مصيبة أن يأخذهم الجزع ، لأن من طبيعة النفس الخوف من العدم ، أما المؤمن فيحمد الله فى السراء والضراء ، ومهما فعل ومهما حل به ، فهو يعتمد على ركن ركين ، وملجأ حصين . إن فاته الخير فى الدنيا أمل فى الآخرة ، وأن لم تسعفه ظروف اليوم ، أمل فى الله غداً .

* * *

وتجاربنا فى الحياة تدلنا على أن الإيمان بالله مورد من أعذب موارد السعادة ومناهلها .. فالدين يكسب النفس قوة وسلوى وعزاء ، وذلك ظاهر فى الدين القلبى . أما الدين العقلى فمبنى على الجدل وحجج المنطق ، وهما يفقدان الشخص حماسته . ومن أراد الهدى فى أعماله ، والتدين الحق فى عقيدته ، فليعتمد على ضميره أكثر مما يعتمد على عقله . وليس لدين بالمساجد والمعابد والأديرة ، إنما الدين بحياة القلب . وكم فى الدنيا من مدن غصت بالمعاهد والمساجد والمظاهر الدينية ، وهى أبعد ما تكون عن الدين . وفى التاريخ أناس شقوا بالدين من تعصب وقتال على المذاهب وحروب صليبية ومحاكم تفتيش ، لأنهم انحرفوا عن الدين الصحيح ، ولم يسمعوا لصوت ضميرهم . . فضلوا فى طريقهم . والدين الصحيح سهل سمح لا يضمر عداء ، ولا خصومة ، كما قال محى الدين بن عربى :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت وكائبه ، فالحب دينى وإيمانى

لقد منح الناس شعوراً بالله يؤمنون به ويعتمدون عليه ، فإذا تحول ذلك إلى بحث فى من هو ، وأين هو ، وما صفاته ، حار الإنسان وأضطرب . وتعجبنى فى ذلك حكاية قرأتها

عن فيلسوف يونانى سئل مرة : « من هو الله ؟ وأين هو الله ! » فطلب أن يمهل يوماً أو يومين ، يفكر فى الإجابة . . فلما لقيه السائل وطلب منه الجواب قال له « لقد رأيت ظاهرة غريبة وهى أنى كلما فكرت فى الجواب أزددت حيرة » . وذلك لأنه سلك سبيل التفكير العقلى ، وكان أسهل علية أن يسمع لصوت قلبه .

وكان القرآن حكيما فى مخاطبته للشعور فى مثل قوله : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف سطحت » ودعوته إلى النظر فى خلق السموات والأرض ، وإختلاف الليل والنهار ، وإختلاف الألسنة والألوان ، أكثر من إعتماده على مقدمات منطقية وأقيسه جدلية ، لأن آيات القرآن هذه تخاطب الشعور والقلب ، والأقيسة المنطقية تخاطب العقل . وكل إنسان صالح لأن يوجه الحديث إلى قلبه ، وليس كل انسان صالحا لان نوجه الحديث إلى عقله .

نعم ، إن العلم قد يخدم الدين ، ولكن لا يبعثه . . فتقدم الناس فى العلم اليوم خفف آلام البشرية من إعتقاد فى السحر والرقى ووجود أرواح شريرة تتسلط على البشر وتعذبهم حسبما تشاء . فكل هذه اعتقادات أزالها أو مزقها نور العلم ، فخدم الدين بذلك خدمة جليلة فإذا اجتمع فى الناس قلب ينبض بحب الله وعقل يزيل الخرفات والأوهام عنه ، كان ذلك منتهى السعادة ومنتهى الرقى .

* * *

لولا الدين ما كانت سعادة ، ولا كانت للحياة قيمة . . بل نحن نرى أن آباءنا كانوا أسعد منا بإيمانهم ، وشبابنا أشقى منهم بشكهم ، أو على الأقل بعدم اكتراثهم . وإن شئت فقارن بين أسرتين : أسرة أسست حياتها على الدين والتزمت به ، وأسرة أضاعت الدين ولم تلتفت إليه ، وأجبنى : أى الأسرتين أسعد ؟ أنى أعتقد أن أكبر سبب لشقاء الأسر وجود أبناء و بنات فيها لا يرعون الله فى تصرفهم ، وإنما يرعمون هواهم وملذاتهم . فهم يركبون رءوسهم ، ويرون

رغباتهم ، من غير وازع دينى يزعهم ، أو نظرة فى العواقب تردعهم . فإذا فشا الدين فى أسرة ، فشت فيها السعادة . . وخاصة إذ كان دينا راقيا تجرد عن الخرفات والأوهام وتدعم بالعلم ، وحكم أفرادها دينهم فى سلوكهم .

أن أهم ركن فى السعادة راحة البال . . والدين أكبر دعامة لراحة البال ، إذ يظهر أنه من طبيعة النفس الإنسانية أن تشعر بوجود إله تعتمد عليه . فإذا لم يكن ذلك ، قلقت واضطربت ، لأنها خالفت طبيعتها ، ولذلك نجد أكثر الملحدين يعيشون . عيشة مضطربة . وإذا جد الجد وحضرهم الموت ، كانوا كفرعون ، لما أدركه الغرق ، قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » .

وهذه هى السعادة فى الحقيقة . . فليست السعادة فى كثرة المال ، ولا فى عظم الجاه ! إنما هى فى أنفسنا وفى داخل قلوبنا . وشىء آخر ، وهو من مزية الدين الإيمان باليوم الآخر ، فهو بذلك يضم حياة أبدية إلى حياته القصير الدنيوية وذلك من غير شك يدعوه إلى أن يفكر فيما يعمل ، لاعتقاده فى الجزاء العادل ، إن لم يناله فى الدنيا ناله فى الآخرة ، ويكفه عن عمل الشر لأن وراءه إلها يجازيه على عمله مهما أسر ومن طبيعة الإنسان حب الحياة ولذلك يرتعد فرقا إذا قيل له إن حياته فى الدنيا هى الحياة لأن معنى ذلك أنها حياة قصيرة ، تنتهى بعدم مفزع . وسعادته الحقة فى أن يعتقد أن وراء هذه الحياة حياة أبدية ، يتسط عليها عادل . .من يعمل مثقال ذرة شرا يره .

هذه الطبيعة الإنسانية التى خلقنا عليها وأى تنح عنها يفسدها . وقد علمتنا الحياة أن الخروج على الطبيعة الأنسانية ولو قيد شعرة ، مدعاة للحيرة والاضطراب .

و بعد ، فإن الدين يجعلنى أنا والإله على متاعب الحياة ، والإلحاد يجعلنى أنا وحدى ضد الله ، وضد متاعب الحياة . وشتان ما بين الوضعين .